



إن كان يفوتنا أننا ماضون في منعطفٍ تاريخيٍ فريدٍ فلأنَّ امتداده يعطي شعور المشي على خطٍّ مستقيمٍ نحسبه على سُكّته إلا بعض التعرّجات هنا وهناك. ويفشى البصرُ عما في الأفق ويصمّ السمعُ عن الهدير غفلةً واعتياداً. ومن علٍ يلمح ذو البصيرة ببراعمَ الحق تتفتح ولو بين شقوق الصخور، توارت عن الرياح العاتية أن تجتّها وأفلّتت عن السيول الجارفة أن تقتلعها وأعجزت الوحوش الضاربة أن تُجهز عليها، كلماتٌ طيبةٌ أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء، تنتظر لحظة اكتمالِ الشروطِ ليثُبّت الشطُءُ ويستويَ على سوقه.

تخيلُ المستقبل كثيراً ما يقع في التمني، ويرتكس أحياناً إلى التعامي. فلكي لا نقع أسير عواطفنا الفكرية وقناعاتنا الشعورية، دعنا نفكّر فيما يقوم عليه النموذج الحضاري الغالب الذي ينظر إلى نفسه أنه هو المرجع والمعيار. المنظومات العالمية تلتها فكرةً وفلسفةً ودين، وتنظمها أطروحة سياسية، وتقوم بها مسالك اقتصادية، وتحتضنها أنساق اجتماعية. ولو أمعنا النظر في كلٍّ من هذه الأوجه لتبيّن لنا ضخامة التأزّم الذي يعتلّ المنظومة المعاصرة وانفتاح فرصة التغيير لمن يمتلك البديل أو كمون البديل. الدينوية الحادثية نشأت على أنقاض دينية فسدت وتفسّخت. الحادثة العلمانية بفلسفتها النفعية واجتماعها الليبرالي واقتصاداتها التكاثرية وسياساتها الديمocrاطية تصدّأت وأعجزت الواقع. هذا التزامن في العجز والتآكل هو الجدير بالملاحظة. وليس هذا التزامن مستغرباً، إذ يتبع العجزُ الفكري ترهلًّا سياسياً فضعفًّا اقتصاديًّا، ويتراافق مع الخواء الأخلاقي تفسّخًّا اجتماعيًّا. وثمة تزامنٌ آخر، ألا وهو توافت الشيّوخة الحضارية مع الانهاب السياسي، وهو مما تمتّ معالجته

فضاء الفكر

في رحاب التجريد يمكننا القول إننا نعيش عصر تجليات ما_بعد_الحداثة وذبول المبادئ والأخلاق واكتشاف لاعقلانية العقلانية وفروط سيولة التأويل وطفو اللامعنى.

ما_بعد_الحداثة كانت إعلاناً صارخاً لاعتلال الحداثة، وليس تجاه ذلك كثير اختلاف. غير أنَّ الذي يفوت بعض الناظرين أن ما_بعد_الحداثة رفضت التويبة وأصرَّت على الحِنْث العظيم. صحيحٌ أنَّ ما_بعد_الحداثة كفرت بِيقينيات الحداثة لكنَّها تابعت مسيرة الشرود. ُّعود التنوير بالحرية والمساوة والأخوة قادت البشرية إلى أعلى سجون التاريخ وأكثر فتراته تفرقةً وأشدَّ أزمانه بُعْضاً. ربما تنبَّه العقل المعاصر فلَفَظَ الحداثة، ولكن القلب بقي معلقاً بِوعود شهوات الحداثة في أملٍ كاذبٍ يرجو أنْ تُحَقَّ لِأَدْرِيَّة ما_بعد_الحداثة أحَلَّمَ الحداثة. ولذا أرى بأنَّ الانتقال من الحداثة إلى ما_بعد_الحداثة لم يكن أكثر من الانتقال من حال المغضوبِ عليهم إلى حال الضالين.

يمكنا التوقف هنا، إذ أنَّ تهدم الإطار الفلسفِي وفساد الرؤية الكلية هو أعمق تعبير عن موجبات التغيير التاريخي، وإن كانت تمظهراته البرَّانية تنتظر استهلاك منتجاته المادية وما راكمه من ثرواتٍ وأصولٍ منقوله وغير منقوله. ولا يهمُّ أن بعض الناس لم يسمع بالانقلاب وظنَّ أنه يستطيع أن يأوي إلى ما يعصمِه من الفيضان.

وإذا كانت الرؤية الكلية هي الناظمة للنماذج داخلها، فإن النماذج السياسية والاقتصادية والاجتماعية سوف تتعالَّ بقدر اعتلال الرؤية الكلية، وهذا ما ستناقشه باختصار.

فضاء السياسة

المنظومة السياسية المعاصرة كانت وعداً لِحُكْمٍ ينفكُ عن تنكيل الأباطرة وحرب الجبارية. ونلاحظ أنَّ امتناع تحقُّقِ وعدها ارتكز إلى شروط ولادتها. فلقد ولدت من صراع خسيس، واقتاتت على الاستخراب والاستبعاد، وارتكتزت على عقلانيةٍ مبتوة. قصة الاستخراب العالمي والعدوان معروفةٌ لا حاجةٌ إلى التفصيل فيها. غير أنَّ ما ينبغي استحضاره هو أنَّ استقرار النظم الديمocrطية لا يُمْكِن أن يُعْزَزَ فقط إلى ما يُفترض من عقلانية فكرتها الداخلية، لأنَّ الشرط الموضوعي لقيامها استند أصلًا على الانتهاك الفظيع، وكأنَّه أعاد توليد عنصرية أثينا بغضِّلاته إسبرطة. العقلانية القانونية التي جعلتها الديمocrطية مبرر وجودها هي: (1) صلدة لا تحيط بتلaffيف حياة البشر وليس قادرة على التجدد؛ (2) عمياء عن العدل في انتهاجها المساواة التماثيلية؛ (3) محدودة العقلانية بطردها العوالم الجوانية. وهكذا تماَسَّسَ ظلُّ مؤسسيٍّ غير فرديٍّ، ظاهرُه فيه القسط وحالُه الواقع قيدٌ في رقاب الجميع. أنه الظلم الذي لا يربده أحدٌ وإن كان الجميع يشارك فيه، وهكذا أصبحت الدولة الحديثة هي طغيان اللأحد، يتلظَّى بناره الجميع ولا يرى لهبه أحد.

ثم إنَّه يصعب تخيل الديمocrطية من غير رأسمالية. إنَّ التناقض الداخلي للديمocrطية ليس دِيالكتيك التفسير المادي للتاريخ ولكنه إخضاع صيرورات التحاور والتعايش وتوزيع الثروة إلى محدودية المنطق الكامن في البيروقراطية، ورفضُ العفوِي البديهي في حياة البشر. عند إدراك ذلك يزول العجب من تزاوج مقتضيات هوبيز مع مقتضيات لوك برغم ما بينهما من تناقضٍ مفترض. وإنَّه يصعب تخيل الديمocrطية من غير رأسمالية، فيصعب أيضًا تخيل نجاح الرأسمالية من غير الاسترقاء والاستبعاد، والترحيل القسري ومحاولة الإفناه وسرقة الثروات، وكل ذلك تمَّ بقرارٍ ديمocrاطيٍّ. هذا التجريف للجمعي والجماعي في حياة البشر - وبغضِّ النظر عن ضمانته الفردية - هو لبِّ الإشكال فيما ظاهره المساواة ومن باطنِه العذاب

الممنهج، تُسلِّم له الأجساد انجحاساً في لعنة الفقص الفولاذى للبيروقراطية التي ليس لها وجه إنسان.

التشاور عرفه البشر منذ أقدم الأزمان، وبعث النقباء عرفه البشر منذ أقدم العصور، فلم تأتِ الديمقراطية بجديد في هذا. أما تمايز السلطات فقد اختلفت فيه التجارب البشرية اختلافاً كبيراً. وربما كانت أبشع تجارب الطغيان في التاريخ البشري اجتماع الطغيان السياسي مع الديني الكنسي، فولد الارتکاس العنيف الذي حُرم من التوازن. المعقوليات الإجرائية لا جدال فيها، ولكنها تتحرّك على حساب العرفي فتُورث شعور الغربة. والتفيق في هذه الإجرائيات جعلها مكلفةً لا تتحمّلها معظم الاقتصادات، وفرضها في الواقع احتاج إلى تضخيم أجهزة إنفاذ القانون الخشنة. فالحميد الذي يُرجى منه في الديمقراطية وقع في الثالث المذكور أعلاه (طرد العرفي + الكلفة + الأسر)، فأصبح الرفق أغلى من الفتق، وأصبحت الحماية تسرى عبر قساوة الأدوات، وأصبح المُخلص عديم الهوية يصعب الارتياح إليه.

فضاء الاقتصاد

تحكّم المال في حياة البشر شُرُّ معروف، لكنه تماّس بشكل منهجٍ عدائي في التجربة الرأسمالية، وتضادُّ مع مسلماتٍ نظريةٍ نحو الكون والإنسان. وامتلكت هذه تجربة فجأةً قارّةً جديدةً بعد أن حازت على آلةٍ جديدةٍ تضاعف الإنتاج وبعد أن توافر الفحم الحجري لتسيرها. اجتماع هذه الثلاثة على مستوى الأدوات، والتقاوئها في عالم التصور مع قرني الشيطان (الداروينية و الفرويدية) هو الذي طبع الرأسمالية بطبعها، فنطق آدم سميث بأنانيّة مبرّرةً للشجع متسلّلاً عنّه هو مستعدٌ للتضحية بأصبعه الصغير مقابل نجاة أهل الصين كلّهم.

فاعليات السوق عرفتها البشرية منذ أقدم العصور، جلبتُّ الخيراتِ وعمرّتُ البلدان. ولكن الرأسمالية أمرٌ آخر آمنت بثالثٍ مدنّس: (1) المادّية على مستوى التصور؛ (2) وهتك الحدود الأخلاقية على مستوى الضوابط؛ (3) والفسق الفردي على صعيد الاجتماع. فأضحت المادة ربياً مطاعاً تُبرّرُ الطغيان بعقلانيةٍ مبتورة، وصارت الأخلاق موضع تهمّ باعتبارها متحدّرة من الأديان، فاعتُبرت خرافةً أو مثالياً فارغةً لا تصلح للحياة. وأصبح التلذّذُ وتمجيد الهوى عقيدةً، والانفلاتُ الفردي والمجموعاتي قرين التمتع.

وفي نظرية الاقتصاد، تمّ افتراض ثنائية فاسدة: محدودية الموارد ولا-محدودية رغبة الإنسان. والأول محدودٌ عند السرف والترف فحسب، والثاني لا محدود عند الشره والبطر فحسب.

العقلانية الضيّقة في معاظمة الإنتاج و التنافس الشرس في حرب الأسعار و الحاجة اللانهائية للتمويل الربوي، ثلاثةً جعلت الحياة خبطاً من المس. الغنى الفاحش لقلة القلة والثلة المتحكم تأتي على حساب كدح الجموع الهادرة داخل الديمقراطيات الفارهة، تُسلِّم النفوسُ لمنظومتها طاعةً لسامريِّ الإعلام، وتأتي على حساب أرواح الشعوب الأخرى تخادنا مع الديكتاتوريين في عالمٍ اعتُبر ثالثٍ مختلفٍ لاأمل له إلا قبول الاستعباد الشهي.

ولما سكتت العقولُ التي عطلَ خوارُ العجلِ الذهبي دارِتها الاستشعرية وتكلّمت شهواتُ الاستمتاع والتفاخر، أنتَ البيئةُ الجمام صادحةً إني مخلوقةً مُسْبحة، ألقُنْ من يستبيحي دورَ التلوثِ والاحتباس الحراري والأعاصير والفيضانات.

وممّا عزّ إشكالية الرأسمالية المضطّة هو أن الحركة التصحيحية للرأسمالية (الشيوعية) التي أدركت بعض شرور الأولى وتطّلعت إلى الهروب من تناقضاتها ودورات تضخّمها وانهيار أسواقها... هذا الجهد الترقيعي للشيوعية أخفق في منهجه الاقتصادي حيث أنّ هدفه كان أيضاً معاظمة الإنتاج، فوقعَت الثانية في شرورٍ تضاهي شرور الأولى، حيث تمّ احتكار الشره المفتوح للإنتاج والسيطرة في جحورِ تخطيطٍ مركزيٍّ اعتلتها بروليتاريا انتقاميةً تماّدت في العقلنة المبتورة وفي رفض ما

فضاء الاجتماع

عاشت البشرية شعوياً وقبائل وأسرأ، محاضن ثلاث تدرج من العالمي إلى الفردي. وفي نسق الحداثة وما بعدها تمت الاستعاضة عن المحاضن الأول بالقومية، وتمت الاستعاضة عن المحاضن الثاني بالمجموعة المصلحية، وتمت الاستعاضة بالمحاضن الثالث بالفردية. هذه هي معضلة النسق اللبرالي.

حُلِّمت اللبرالية بحريةٍ مطلقةٍ وتطلعت نحو فرديةٍ طافحةٍ، تصيّد سعادةً موهوماً لمجتمعٍ استبدَّ به مؤسسةٍ دينيةٍ شاركتَ المُتحكّمَ السياسي والمُتجبَّرَ الإقطاعي. فات اللبراليةُ أنَّ في القيد حريةٍ من العبث وأنَّ في الحرية قيداً عبيداً، وكلاهما يفتقر إلى الانتظام بشرعيةٍ أخلاقية.

اهتمت اللبراليةُ في بداياتها بما قسا عنه قلب النصرانية المفطورة على التراحم، حيث قصرت في مخاطبة آلام العمال والمستضعفين الذين أنتجتهم المنظومة الرأسمالية بعد الثورة الصناعية وما رافق ذلك من نشوء المدن الكبيرة وفي محيطها حلقات البؤس والجريمة. غفلت النصرانية عن هذا بشكل عام وقصرت تقصيراً كبيراً، برغم أنَّ الحركات الإحيائية كان لها مساقاتٍ إنسانية، ولكنها في النهاية قاصرة في التعامل مع المنظومة التي تولَّت الخلل حيث تطبعَت المنظومة الرأسمالية من جهة، ومن جهة أخرى جرت عملية حلولٍ بين العرق الأبيض والنصرانية والرأسمالية. وأضف إلى ذلك أنَّ الكاثوليكية كانت شريكةً في خطايا السيطرة على العالم الجديد، كما كانت الأرثوذكسيَّة شريكةً في آثار القياصرة الروس، ومن جهة أخرى كان التبشير رديف حملات الاستخراج العالمي.

وحيث أصبحت اللبرالية هي الضامن الأخلاقي للديمقراطية، فإنها اكتوت بلضى مؤسساتها التي التجأت إليها، وأصابت الديمقراطية بمرضها من جهة ثانية. فالمفارقة أنَّ التفتيق اللبرالي في طلب الحقوق الفردية (هذا هو مرضها) يتطلَّب مزيداً من البيروقراطيات التي هي في النهاية خانقة (هذا هو الاكتواء). وخطاب المطلبية التي يُغفل القيام بالواجب يساهم في إنشاء أُنانيَّة ثقافيةٍ تزيد في التعقيد المؤسسيِّي الإجرائي والقانوني. ثم ما لبثت اللبرالية أنَّ تخلَّت عن اهتماماتها الجمعية وتمحورت حول خصوصياتٍ شخصيةٍ في غاية السخف. وفي سعيها وراء سعادَةً موهوماً انغمست هي الأخرى في لذة الاستهلاك، وإن كان وفق نمط بدائيٍ وليس وفق نمطٍ برجوازيٍ. وفي غياب أفقٍ أخلاقيٍ متعالٍ، انكفاء اهتماماتُ اللبرالية إلى النفس، وتخيلُت الجسد بلا روح (وحيث بحثت عن الروح اختزلتها) وأصبحت (الذات) هي محور اهتماماتها ومواطن نضالها ينهشها عضال تلذّذٍ فقدَ طعمةً.

وبعيداً عن مسيرة اللبرالية في فضاء الأفراد والقانون، اللبرالية كمنظومة اجتماعية قامت عملياً على أنقاض المعمار الإنساني المجدَّر في مؤسساته التاريخية: الأسرة والعشيرة والجيرة وأماكن التبَّل والعبادة.

≈ ≈ ≈

فهذه هي الفضاءات الثلاثة، السياسة والاقتصاد والمجتمع، التي تقوم عليها حضارة اليوم تعلن اعتلالها في كلٍّ لحظةٍ وفي كلٍّ حرقةٍ وفتور. وهذا هو التزامن المشار إليه في مقدمة المقال، وهو تعاقبٌ طبيعيٌ للخلل الفكري فالخلل الاجتماعي فالخلل السياسي فالخلل الاقتصادي.

ولكن كيف ذا والمعجبون المغرمون بها ما زالوا كثُر؟ حقاً، النمط الحضاري القائم ماهرٌ في تحريك الشهوات. ولكن في حين أنه كان الإعجاب بهذه الحضارة مبرراً عقلياً، أصبح اليوم مرغوباً غريزاً فحسب، فالناس مفتونةٌ بالمنتوجات أكثر من

البديل بين الغياب والحضور

أول سؤال يتबادر للقارئ هو البديل الحضاري المأمول ونحن نرى ما عليه من تردٍ في واقع المسلمين. غير أنّ لحظة تأمّلٍ تتجاوز الظاهر وتنفُّد إلى الأعمق يتبيّن لها أنّ ما كان يموج في الأعماق في القرن الماضي انتفض من سهوته بشكل عفوٍ وبدء في مسيرةٍ محفوفة بالعقبات والصعوبات، لا هو محيطٌ بخطورتها ولا هو مستكملاً للعدد التي تتطلّبها، غير أنه اقتنع أن استفراغ الوقت في الإعداد هو هدرٌ للأوقات والإمكانات، فكمال الإعداد ممتنعٌ مع عدم التحرّك، والمطلوب في التحرّك هو تقدير المُطاق من صيروراتِ الجهاد التي تكفل استمراريتها.

ونعود خطواتٍ إلى الوراء لنتفحّص الأسباب الكامنة وراء الظهور المسلم وإرادته، والتي نرى انعكاساتها في كل مكان فيه مسلمين وفي كل بقعة يعيشون فيها.

الجمود الفكري والفكري تعرّض له أيّ أمة، وكان لنا نصيب من ذلك. وحيث أنه كان لنا كيان حضاري متكامل فيه سياسية واقتصاد واجتماع وفق النسق الإسلامي صبغةً وشكلةً (بغض النظر عن الدُّخن فيه)، التقصير في ناحيةٍ كان يجُبره النشاط في ناحية أخرى، وما دام المسلمون ينعمون بحماية حرمهم، تكفل الزمانُ بإخراج من يجدّ عليهم تديّنهم ويعيدهم إلى المحجّة البيضاء.

الوهدة الحضارية التي نحن فيها دمرت كل شيءٍ مرتّةً واحدةً، أو كادت، وربما كانت الأسرة هي المعلق الأخير الصامد رغم كلِّ الزلزلة. التيار أحالوا النهر سواداً لكن لم يُنظر إليهم إلا أنهم همج الهضاب، والفرنجة استلوا بيت المقدس ولكن لم ينبهر بهم أحد. وهدتنا الحضارية تظهر تحديداً في التبنيّ الآني للثقافة الوافدة ولمؤسساتها. ويكمّن الوعود الامل تحديداً في الرفض الآني لكلٍّ من هذين الوجهين.

كانت عهدة الجهاد في يد الجماعات الإسلامية التي حملت لواء المقارعة على الصعيد الثقافي والمؤسسي، برغم كلِّ ال�نات وسوء التقدير الذي وقعت فيه. وأتى ذلك على إثر جهود العلماء، تلك الجهود التي جمدت بعد أن ضمر الحاضن الاجتماعي الطبيعي لخطابهم، وبعد المؤسسة والتقنيين وتحول العالم إلى موظفٍ مكبّلٍ أو إلى معزولٍ.

ونرى تزامناً في التغيّرات عندما نتفحّص الواقع المسلم. الانحباس الفكري عند مجموعةٍ من المشايخ انفتح على صعيدٍ واسعٍ من المتخصصين في التراث في الجامعات. الحركات الإسلامية التي لم يتجاوز همّها يوماً الأسر التنظيمية أصبحت على مشارف البرلمانات، بغض النظر عن الكيد الذي تربّص بها. ضياع ما-بعد-الحداثة قابله رشادٌ متوازنٌ في نخبة المسلمين في العلوم الاجتماعية والإنسانية. لا يهمّ هنا النضوج الكامل لأيٍ من هذه التوجهات، وإنما التعويل على حركة الأمة التي تجاوزت حدّ الخمول وخاضت أوليتها ساحاتِ الجهاد الحضاري، أخطأت ما أخطأت وأصابت ما أصابت.

بل لقد كانت الأخطاء ضروريّةً لذهاب الزبد وبقاء ما ينفع الناس. وهذا نرى تمحيص العلماء على منصة الواقع، تمحيصاً ثنائياً: أخلاقياً في الاصطفاف مع الحق، وعلمياً في الاستجابة لروح الإسلام في التشريعات. والفرقان في ذلك هو ضمير من لا تجتمع على ضلاله، أمّةٌ مسترشدةٌ بكتابها المحفوظ وسنّتها المدونة وأصول تراثها المجيد مما يُشكّل مراسياً تُحول دون الانحراف وإن كانت لا تعصّم من الزلل. وهذا نرى تمحيص مناهج الجماعات الحركية، فما كانت للحرفية السكونية إلا أن تُفسد الحركة لتعارض طبيعتهما، وما كان للبراغماتية التبريرية إلا أن تُطيحها طهارةُ المبدأ وسنةُ الابتلاء. وهذا نرى تمحيص الطروحات الفكرية.

والجديد في الأمر أن حركة الأمة تجاوزت حدود النخب. فلما عجزت النخب عن القيادة تكاثرت التجارب المحلية برتادها وسطي المسلمين، وما كان لها إلا أن تُجرب وتعلّم من أخطائها. فأثارت رعب قوى الشر التي ظنّت أنها ودّعت زمان عز المسلمين وأنها أجهزت على ثقافتهم وعلى حياتهم. أوليس أمراً داعياً للعجب أن في زمن وهدتنا الحضارية فتحنا ثلاثة قارات، أوربة وأمريكة الشمالية وأسترالية، وأصبحنا جزءاً لا يتجزأ من تلك المجتمعات، وما بقي من وبرٍ ولا مدرٍ لم تُزرع فيه بذرة للإسلام (إلا في أمريكة الجنوبية، وهي ذات تربة صالحةٍ لبذورنا). أفلأ يبعث شعور الاعتزاز أننا في لحظات الضعف الحضاري صار عندنا علماء في كل حقلٍ علمي أكثر بمراتٍ مما كنا عليه في مئة أو مئتي سنة قبل السقوط.

لكن القيام لا يتم عبر الأفراد. ولذا حُرمت علينا السياسة التي تجمع متفرق قوانا. ولذا أيضاً كان استهداف مواطن الحضارة الإسلامية. وما كانت سياسة الأمة لأن تُستأنف بلا نظريةٍ وبلا عصبية التماسك. ولقد أصابت العطوب كلاً من النظرية السنّية والشيعية تنتظaran التجديد، وعجزنا عبر التاريخ عن ردم الفجوة فتعزّز التباعد.

التشييع قبل الصفوين كان جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الأمة يعلو ويهبط ويعترك مع ما داخله من باطنية، أما بعد الصفوين فقد تأسست فيه الباطنية والقومية معاً. ثم جرت حديثاً محاولات التجديد الجدي للتشييع في ظلّ التحدّي الحضاري الغربي لكنها أخفقت في امتلاك زمام الأمر. الثورة الإيرانية استغلت عصبية التشييع وباغتت العالم ونجحت. وكان ثمة فرصة للتخلص من ظلام التشييع بعد أن ظهر على السطح، ولكن قوى التقليد المغروزة في تراثه غلبت على عقلائه. لقد امتلك الخميني لحظةً تاريخيةً للتجديد الداخلي وللقاء الخارجي مع السنة على منصة التوحيد وختم الرسالة وحفظ القرآن وهيمنة مفاهيمه، ولكنه لم يفعل. ومضى المشروع السياسي للتشييع في نشوء انتصاره يحلم بإزالة التسنيّن وإخضاعه، موازياً لجهودٍ تلبس أثواب التسنيّن غارقةً في الحرفة موظفةً سياسياً.

لم نستطع كأمة ردم الفجوة السنّية الشيعية بصيغة تنوعٍ لا صيغة إزالة. فقضى التاريخ أن ينقض التشييع نفسه بفعله وبفعل نخبه. وتزامن سقوط التشييع مع سقوط المحرّف لعلماء السلطان... هذا السقوط المتزامن للحاجز الشيعية والسنّية - وإن كان يترافق مع انتشار الشكوك عند من افتقد العدة والتربية القومية - يحرّر الطاقات ويُجلّي النّظرة ويُمهّد لظهور التجليات الأصيلة للحق.

تركيا من الجانب الآخر كانت قد تسلّلت تحت موجات الرادار العالمي حتى وصلت نخبةٌ حكيمه إلى مصاف الحكم. والحداثة التي تميّزت بها الثورة الإيرانية لم تكن لتمتلكها التجربة السنّية التي تفتقد عصبية عقدة الأقلية. وسلامة الطوية التركية كان لا بدّ لها أن تستيقظ عند مساومة الذئاب، فقد ظلّ المخيال التركي يوهم نفسه أنه أوربيّ أو يمكن أن يُقبل أوربياً حتى أيقظه الثورة العربية. تاريخياً، التوجّه العثماني نحو بلاد العرب أمد العثمانية بعمقٍ إسلاميٍّ، والتوجّه ثانية نحوها اليوم هو الذي يعطيها العمق الاستراتيجي، وإن حال دونه ما حال. الساحة اليوروآسيوية هي ساحة النزال والمساومة، والساحة الجنوبيّة هي ساحة التأسيس والارتكان.

بلاد اللسان العربي أُسيرة حكوماتٍ مرتهنةٍ باعت الشعوب والأوطان وألجمت الطاقات والإبداع. لا بدّيل عن سقوط هذه الهياكل المتصادمة مع تاريخ المنطقة وجغرافيتها. ولا بدّ أن نعود في منطقتنا العربية شعوباً وقبائل نتعرّف، عربينا وكربدلينا وأمازيغنا تحت مظلة غير قومية وضمن تربية ملية جديدة. وإن مركزية بلاد اللسان العربي تأتي بسبب أنّ الحفاظ على لغة القرآن هو حفاظٌ على الدين نفسه وشرطٌ للتجديد الفكري المتزن.

على الصعيد الهيكلـيـ، لا مناص أماننا إلا استثمار التفتّت من أجل الدفع نحو تكاملٍ اقتصاديـسياسيـ والمشي باتجاه فدراليةٍ في بلاد الجزيرة العربية وفدراليةٍ في بلاد الشام وفدراليةٍ في حوض النيل وفدراليةٍ في المغرب العربيـ. وخلال هذه

العملية تذوب الحدود الصلدة وتحول إلى تخوم مرنة، ويتم التركيز على المصالح الاستراتيجية الكبرى ب رغم اختصاص كل كيانٍ مكونٍ بالإدارة الذاتية لأموره المباشرة، ثم ربما تجتمع هذه الفدراليات في كنفدرالية خلافة. هذا عن التشكيلة السياسية التي توازيها نشاطات اقتصادية تكاملية عابرة للحدود الاصطناعية. أما المجتمعات فتعيش وفق ثقافاتها المتلونة التي تستصحب حُكماً الخلفية الحضارية للمسلمين بعيداً عن التحكّمات الإيديولوجية.

حقاً إننا في منعطفٍ تاريخي فاصل.

إنه منعطفٌ تحرّر المسلمين رب العالم، والأمة هي الكتلة الوحيدة التي تمتلك العنصر الفاعل من ناحية والتي لها قبلة للتوجّه الراسد من ناحية أخرى، وهي العنصر الحرج لإزالة القيود من أمام الإنسانية جمّعاً فتدخل في السلم كافّة.

نسألك ربنا قوّة وإيّواه إلى ركنٍ شديد.

المصادر: